المستشرقون وضررهم على الاسلام

بيني وبينه مرجليوث

بقلم الدكتور حسين الهراوى

نترك للأستاذ الفاضل صاحب « المعرفة » – إذا شاء – أن يذكر الظرف الذى أخرجه فى مناقشاتنا معه مناقشة خاصة ، جعلته يستدل برأى « مرجليوث » الذى بعث به إليه فى خطاب أطلعنا عليه ، والذى دون فيه رأيه عما نكتب من ضرر المستشرقين على الاسلام ، خصوصاً وقد تناولنا مرجوليث نفسه بالتخصيص ، لأنه فى نظرنا أنموذج لايجعل الناس يطمئنون إلى مايكتبه المستشرقون عن الاسلام ، وعن محمد عليه السلام .

قال مرجوليث : « أما ما كتب الدكتور حسين الهراوى فى ذم المستشرقين ، فلو كان ما أودع مقالته من الشخصيات تعلق بالآداب لم يكن ما يمنع من الخوض فى الموضوع والتمييز بين الخطأ والصواب ، وأما المسائل التى ذكرها فلست أرى فائدة فى مداخلتها لكونها أقرب إلى منبر الخطباء منها إلى مجالس الأدباء »

د . س . مرجليوث

ورداً على ذلك نقول : إننا تناولنا من آراء «مرجليوث» نقطتين مما كتبه فى التاريخ العام للعالم فى الفصل التاسع والثمانين .

الأولى أنه قال: إن عبد الله يطلق على الشخص المجهول ، وربما كان له مثل هذا المعنى عند إطلاقه على والد النبى .

والثانية : أنه قال فى نفس الفصل ، وفى صحيفة ٢٣٩٨ :« إن إعجاز أسلوب القرآن يفسر إما بأنه لايمكن تقليده أو الإخبار بأمور يمكن التحقق منها ، ولم يكن للنبى وسيلة لمعرفتها ، وإننا نعلم من القرآن أن كلا من هذين الادعائين – عندما أذيع – لم يسلم من النقد، فالأمر الأول أن ذوق الأسلوب الأدبى يختلف كباقى الأذواق الخ . . . »

وكذلك قال فى هذا الفصل: إن محمداً – عليه السلام – اعترف فى مبدأ رسالته بمعرفته القراءة .

ولنناقش نقط مرجليوث هذه التى يرى ردنا عليها فيما مضى ، ليس له علاقة بالأدب العربى .

فأما عن والد سيدنا محمد ، فنحن ننكر على أدب أستاذ فى جامعة أكسفورد، أن يوجه مثل هذا

الطعن لنبي يدين بدينه ملايين المسلمين ، وأن يتفوه بتهمة ترتفع أبسط قواعد الآداب العامة عن أن توجهها لأى الناس .

وثانياً : إن مرجوليث لايعرف شيئاً من الأدب العربى، وإلا لعلم أنه كان فى العرب نسابون ، ولو أنه تكلم أولا عنهم ـ وعن مصادر الشك فى أقوالهم وتنسيبهم ـ لكان لنا أن نناقشه بالأدلة العلمية ، أما وأنه لم يذكر شيئاً من هذا فدليل على أنه لايعرفه .

وثالثاً : لأن جد محمد عليه السلام وعمه هما اللذان كفلاه صغيراً ؛ ولو كان مجهول الأب ماعرف له عم ولا جد ، وهذا يدل على أن مرجوليث لايعرف شيئاً من تاريخ سيد نا محمد عليه السلام .

رابعاً : إن عصبية محمد عليه السلام حمته فى مبدأ رسالته ، ولو كان مجهول الأب ما كانت له عصبية ؛ فاذا كان مرجوليث لا يصدق شيئاً من هذا ، فليقل لنا هو كيف يريد أن نصدق كلامه ؟ وكيف أمكن وجود أشخاص تربطهم بالنبى الكريم صلات العصبية حتى بعد الاسلام ، إذا كنا ننكر كل ذلك لأن مرجوليث قالها ؟ إذن فعلى العقول السلام ! ثم فليفسر لنا مرجوليث كيف مكنته نفسه وكيف مكنه ضميره من يقول هذا ، وعلى أى المراجع الموثوق بها عول فى بحثه ؟ فهو إما لايعرف شيئاً مطلقاً ، وأن ما يريد التشهير والتشنيع ؛ وهذا مالايشرف الباحثين .

ثم فليجبنا : أليست الأنساب والنسابون جزأين من صميم التاريخ والأدب العربى ، أم هى ضروب من خطب المنابر ؟ وإذا كانت ضروباً من خطب المنابر ، فكيف حفظ التاريخ أنساب قوم لم يكن لهم مرتبته عليه السلام من الوجهة الاجتماعية ؟ وكيف أمكن معرفة نسب والدته وزوجته خديجة ؟ أم كيف أمكن تنسيب شعراء مشهورين مثل امرىء القيس وغير أمرىء القيس ؟

أما القول فى مسألة إعجاز أسلوب القرآن بأنها مسألة ذوق ، فانى أرى أن مرجوليث ـ كما نستدل من تعبير خطابه ـ ذو أسلوب ملتو ركيك ، يجعله آخر شخص يؤخذ برأيه فى مسألة الذوق الكتابى ، بعد أن تحدى القرآن نفسه الناس بل الانس والجن مجتمعين ، أن يأتوا بسورة من مثله ، فما استطاعوا . فلم يبق فى نظر صاحبنا مرجوليث إلا نقد الاسلوب بميزان الأذواق التى تختلف دقة ورقة ، ونحن معه على أن يكون الشرط الاساسى أن تكون هذه الأذواق سليمة ، تتفهم روح العربية . والمستشرقون هم أبعد الناس عن تفهم تلك الروح ، ولهذا فانهم ينشرون مؤلفاتهم باللغات الأجنبية ، وإن كانت بعض مقدمات الكتب التى طبعوها ، قد كتبت باللغة العربية ، إلا أن الحكم على أساليبهم ، قد لايرضيهم من وجهة الأدب الكتابى الفنى .

وإذا كان مرجوليث حصر إعجاز القرآن فى الأسلوب والإخبار بالغيب ، فقد فاته أن ضروب الاعجاز فى القرآن كثيرة ومتنوعة ، وليس من موضوعنا شرحها ، وإنما نحيل القارىء إلى ما كتبناه عنها فى مباحثنا فى الرد على المستشرقين ، وأضرابهم للمبشرين[1] .

على أننا نسائل هنا أستاذنا مرجوليث : ماقوله دام فضله فى أنواع الاعجاز العلمى التى أثبت العلم الحديث مدى صدقها . ونذكر منها على سبيل المثال : «وجعلنا الرياح لواقح» ، و «خلق الانسان من علق » ـ أى دود الحيوانات المنوية ـ و « خلقناكم أطواراً » ؛ وهى تتمشى مع العلم جنباً إلى جنب ؟

فهل كشف العلم عن إعجاز هـذه الآيات إلا حديثاً ؟ وهل كان الميكروسكوب ، وعلم تكوين الأجنة معروفاً من قبل عند نزول القرآن الكريم ؟

ولا يفوتنا أن نتكلم عن النقد ، فالانتقاد هو أسـهل شىء فى العالم ، فقد ينتقد شخص ما الخلقة البشرية ، بأن عينى الانسان فى وجهه ، وليس له مثلهما فى قفاه لينظر من الخلف والأمام ، وقد ينتقد البهلوان طريقة السير على الأقدام ، ويستحسن أن يمشى الانسان على يديه رافعاً قدميه فى الهواء ! كل هذه أنواع انتقادات قد يراها أهلها صحيحة ، ولكن الذوق السليم والعقل السليم بصفة خاصة يأبيانها على منتقديها .

وهذا هو النقد الذى يوجه إلى تجاهل نسب النبى الكريم ، فأسلوب القرآن لايقصد به إلا مجرد التشهير والتشنيع .

ثم ماذا يقول فى فهمه تفسير « اقرأ وربك الأكرم » بأنها اعتراف من النبى الكريم بمعرفة القراءة ، فهل هذا يدل على تفهم روح القرآن ؟

ولقد أطيل البحث إذا استقصيت آراء مرجوليث فى مصادر القرآن التى يقول بها ، ويقول بها معه المستشرقون الذين على نمطه ، فقد ادعوا أن النبى عليـه السلام قد درس كل الفلسفة اليونانية ، ثم حفظ كل التاريخ الفارسى ، ثم عرف كل الأديان الهندية القديمة ، كما اطلع على كل حكم الصين فأخرج من كل هؤلاء كتاباً سماه القرآن .

ومعنى ذلك أن الدراسات التى استنفدت القرون الأولى حتى القرن العشرين لدراستها ، وتخصص لها العلماء الذين عكفوا على دراسة لغاتها المتعددة ، والتجوال بين آثارها البالية ، كل هذا ، قد تعلمه محمد عليه السلام فى سياحته للشام ، فاذا رجعت إلى التاريخ وجدت أن هذه السياحة لم تكن إلا ثلاثة شهور ، فهل فى هذا منطق يناقش ؟ وهل هذا أسلوب المنابر ، لا فى صميم الأدب العربى والتاريخ ؟ !

الدكتور حسين الهراوى

(١) راجع فى هذا «مجلة المعرفة» ، ابتداءاً من عدد يوليو سنة ١٩٣٢ وما بعده .